تحقيق مفهوم الزهد في الدنيا في ضوء فهم مقاصد الوجود الإنساني (دراسة تأصيلية نقدية)

*اياد نمر**

ملخص

يتناول هذا البحث مسألة التأصيل المقاصدي للوجود الإنساني أداةً من أدوات تحقيق مفهوم الزهد في الدنيا، من خلال عرض العلاقة القائمة بين الإنسان والحياة، ودوره الإيجابي في هذا الوجود، مما يسد الطريق أمام الفهم المغلوط أو المغالي للزهد الذي لا يرى صحة الإيمان إلا بنبذ الحياة، ولا تحصيل الآخرة إلا بهجر الدنيا. ويعرض البحث لأسباب التحول الخطير في مفهوم الزهد في الدنيا، وعوامل الانحراف عن المنهج النبوي، محذراً من مخاطر هذا التحول على الفرد والمجتمع، مؤكداً في الوقت نفسه نفي التعارض بين الزهد كمقام من مقامات تزكية النفس، وتكليف الإنسان بعمارة الأرض واستخلافه فيها كمقصد من مقاصد الوجود.

الكلمات الدالـة: الزهد، مقاصد الوجود الإنساني.

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث بالرحمات، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

في تحوّل خطير لمفهوم الزهد في الدنيا وجد المسلمون أنفسهم على هامش الحياة لا في متنها، وفي غياب للتوازن بين مكونات الإنسان وحاجاته (جسداً وعقلاً وروحاً)، وجد المسلمون الخلل والنقص في حياتهم الاجتماعية والفردية، وفي ضبابية للفهم وتشويه للنصوص اختلطت أوراق تزكية النفس بالضعف والكسل، وغدا الزهد مُعوّقاً من معوقات التقدم والإنجاز الحضاري لخير أمة أخرجت للناس، ولكن الأخطر من ذلك الاعتقاد بقداسة وشرعية هذا الفهم المغلوط لمقام من مقامات التزكية، كان يؤمل أن يكون طريقاً من طرق الوصول إلى مرضاة الله، فإذا هو سبب انحراف الأمة وتأخرها، وإذا التبعية والتخلف الحضاري والاتكال على الآخر تغدو عبادة يتقرب بها إلى الله.

ومجيء ذكر الإيمان مقروناً بالعمل في عشرات النصوص الشرعية دليلٌ واضحٌ جليٌ على مفتاح سرّ تميّز هذه الأمة ونهضتها، وأن أي انفكاك بينهما يعنى تأخراً في مهمة الإعمار والاستخلاف التي وجدنا من أجلها، وغياب هذا التلازم بين الإيمان والعمل يعني انقسام الناس إلى فرقتين: فرقة تدعي الربانية والإيمان، تَقصر الدين على الشعائر التعبدية، ولا تلتفت إلى حاجات الكون ومتطلبات الإعمار، وفرقة مادية عملية تركن إلى عمارة الأرض واستثمار خيراتها لكن دون دليل السلامة الرباني الذي يكفل سلامة النتائج وقلة المخاطر والأضرار أو انعدامها.

ويأتي هذا البحث ليسلط الأضواء على مدى الترابط والانسجام بين عمارة الأرض والاستخلاف المعبّد لطريق الحضارة وبين الزهد في الدنيا التي هي محل الإعمار، نافياً التعارض أو التناقض بين الفهم الحقيقي للزهد في الدنيا والدعوة إلى إعمار الأرض، وذلك من خلال عرض الأدلة النقلية التي كان عليها الزهد في القرون الأولى، عصور الدعوة والفتوحات، ومتناولاً الأدلة المقاصدية الكفيلة بتصحيح مسار أمة انعطفت بها الطريق عن ركب القيادة، وتولي زمام الحضارة، وانشغلت بمقامات موهومة من الزهد، أو مختلقة من التقرب والتزكية ليس لها في دين الله من سبيل.

مشكلة البحث:

تحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:

* قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة العلوم التطبيقية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2017/4/3، وتاريخ قبوله 2017/4/20.

© 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

- هل الزهد من أحوال القلب، أم من أعمال الجوارح؟
- هل ثمة علاقة تلازم بين الزهد والفقر؟ وهل يتنافى الزهد مع الغنى والتقدم والحضارة؟
- ما علاقة الإحاطة بمقاصد الوجود الإنساني في تصويب الفهم الصحيح للزهد في الدنيا؟
- ما عوامل التحوّل في مفهوم الزهد عما كان عليه العمل في عصر النبوة؟

أهمية الدراسة:

تظهر أهمية الدراسة من خلال النقاط التالية:

- التأكيد على دور الفهم الصحيح للنصوص الشرعية في تحقيق السعادة في الدارين.
- الإلمام بجوانب الحضارة الإسلامية في الجمع بين الإيمان (العبادة) والعمل (الإعمار).
- العودة بالأمة إلى مقامات القيادة للبشرية بما تملك من مقومات مادية واعتقادية.
- تسليط الضوء على بعض عوامل الهزيمة في أمتنا ومحاولة مقاومتها.
- تأكيد الدور الإيجابي للمسلم تجاه الحياة والوجود بشكل عام.

الدراسات السابقة:

لا يوجد دراسة مفردة بهذا العنوان، غير أن الباحث استفاد من كتب الشيخ الغزالي (المعاصر) بالأخص في تحقيق مفهوم الزهد المتوافق مع مقاصد الوجود، ومن كتب الزهد والتزكية للعلماء القدماء في تناول الأدلة النقلية على ترجيح الزهد بمعناه القلبي كما سيظهر لاحقاً.

منهجية الدراسة:

لتحقيق أهداف الدراسة اتبع الباحث المنهج التحليلي للنصوص المتناولة لجوانب الموضوع، والمنهج النقدي في الحكم على الأفهام والآراء التي التصقت بموضوع الزهد في الدنيا، مع عناية كبيرة في التأكيد على دور المقاصد الشرعية والوجودية عامة في إثبات صحة نتائج التحقيق في مفهوم الزهد كواحدة من المسائل الفرعية التي ينبغي أن تتوافق مع أصل التشريع وأهدافه.

وبناءً عليه فقد جعلت البحث في ثلاثة مباحث وخاتمة، وهي:

المبحث الأول: في تحقيق مفهوم الزهد. وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: مفهوم الزهد، لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: حقيقة الزهد.

المبحث الثاني: مقاصد الوجود الإنساني. وفيه:

المطلب الأول: خصائص مقاصد الوجود الإنساني.

المطلب الثاني: مقاصد الشريعة الإسلامية تحقق مقاصد الوجود الإنساني.

المبحث الثالث: التحوّل في مفهوم الزهد، الأسباب والنتائج.

الخاتمة وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: في تحقيق مفهوم الزهد.

المطلب الأول: مفهوم الزهد، لغةً واصطلاحاً.

الفرع الأول: الزهد لغةً.

الزهد لغةً من: زهِدَ يزهَدُ، زُهداً وزهَادةً وزَهَداً، فهو زاهدٌ، والمفعول مَزهودٌ عنه، (ابن منظور، 196/1985:3)، وتدور معانيه في اللغة حول الأمور التالية:

أ. ترك الميل إلى الشيء، والإعراض عنه، (الجرجاني، 115/1983:1)، وهو ضِدُّ الرَّغْبَةِ تَقُول: (زَهِدَ) فيه وَزَهِدَ عنه مِنْ بابسَلِمَ، (الرازي، 2003:1/ 138)، وفي المصباح المنير: زَهِدَ فيه، وعنه، بمعنى ترك وأعرض عنه، (الفيومي، د.ت:257/1)، وفي الحديث:" ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ"(ابن ماجه، سنن ابن ماجه، باب الزهد في الدنيا، رقم

4101، والحديث ضعيف: تحقيق الأرنؤوط). وَيُقَال زهد فِي الدُّنْيَا: ترك حلالها مَخَافَة حسابه وَترك حرامها مَخَافَة عِقَابه، (مجمع اللغة العربية، د.ت:1/ 403).

ب. قلة الشيء، قال ابن فارس: (زهد) الزاء والهاء والدال أصل يدل على قلة الشيء. والزهيد: الشيء القليل. وفي الحديث:" أَفْضَلُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ مُزْهِدٌ"(الألباني، ضعيف الجامع:83/3) أي: مُقِلٌّ، والوادي الزهيد: أي قليل الأخذ للماء، (ابن فارس، 30/1994:3)، وعطاء زهيد: قليل. وازدهد العطاء: استقله. ويقال فلان يزدهد عطاء من أعطاه أي يعده زهيدا قليلا، (ابن منظور، 1985:3/ 196).

ج. احتقار الشيء واستصغاره وعدم المبالاة به، يقال: تزاهدوا الأمر: تحاقروه. ومنه الحديث "إن الناس قد اندفعوا في الخمر وتزاهدوا الجلد "أي احتقروه ولم يبالوا به، (الزمخشري، د.ت:1/ 425)، وقوله عز وجل: " وكانوا فيه من الزاهدين"(سورة يوسف:20) قال ثعلب: اشتروه على زهد فيه (استصغار لشأنه)، والزهيد: الحقير، (ابن منظور، 1985: 3/ 196).

الفرع الثاني: الزهد اصطلاحاً.

تعددت تعريفات العلماء للزهد، ويمكن تصنيفها إلى مجموعتين بحسب محل ارتباط الزهد:

الأولى: التعريفات الذوقية الإيمانية:

وهي أكثر التعريفات، ويرتبط فيها الزهد بعمل القلب، فلا يمتنع فيها تملك الأشياء ولكنها تؤكد على منع التعلق وتحذر من الاهتمام بالدنيا على حساب الآخرة، ومن هذه التعريفات:

أ. الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، (ابن القيم، 1999: 10/2)، وفي الزهد الكبير عن ابن عباس .رضي الله عنه. قال: " الزهد: ألا يسكن قلبك إلى موجودٍ في الدنيا، ولايرغب في مفقود منها"(البيهقي، 1996: 61/1).

ب. الزهد: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب، وقيل: النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها، (ابن القيم، 1999: 11/2)، وقيل: الزهد في الدنيا قصر الأمل، (وكيع، 1984: 221/1)

ج. عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف، (ابن القيم، 1999: 11/2).

د. الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه من منازل الآخرة، (ابن القيم، 1999: 11/2).

هـ. وقيل: " الزهد هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية"، (ابن القيم، 1999: 11/2).

الثانية: التعريفات العملية الحسيّة للزهد:

وجلّ هذه التعريفات تجمع إلى الوظيفة القلبية في الزهد طلباً عملياً سلوكياً يتمثل في التقلل من الدنيا وعدم تملكها أو التعلق بها، ومن هذه التعريفات:

أ. الرضا بالقليل، وترك الفضول، وهو ما زاد على المسكة (الشيء القليل الذي تحويه اليد كالسوار) والبلاغ من القوت، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش (القطع بشجاعة قلبه عند الفزع)، والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين، (ابن القيم، 1999: 14/2).

ب. الزهد ترك الدينار والدرهم، وهو قول عبد الواحد بن زيد، وقال قوم: هو ترك ما فيه بد من فضول الدنيا، (القشيري، د.ت:241/1).

ج. زهد الأغنياء في القناعة، وزهد الفقراء في أن لا يريدوا خلاف حالتهم"، (البيهقي، 1996: 80/1).

د. الزهد الثقة بالله مع حب الفقر، (ابن القيم، 1999: 12/2).

هـ. وجود الراحة في الخروج من الملك، (الغزالي، د.ت: 242/4).

و. خلع الأيدي من الأملاك، (المحاسبي، 1988: 171).

وبعد هذه الجولة السريعة في تعريفات العلماء للزهد، لا بدّ من الوقوف على حقيقة الزهد وماهيته، ليتسنى لنا معالجة هذا التباين في التعريفات، وذلك تمهيداً لتنزيل المعنى الحقيقي للزهد على واقع الحياة العملية، والتأكيد على العلاقة المتوازنة بينه وبين الدعوة إلى عمارة الأرض.

المطلب الثاني: حقيقة الزهد.

هل الزهد من أحوال القلب، أم من أعمال اليد والجوارح؟ وهل يناط الزهد بالقلب كمحل له، أم أن محله الكسب والعمل؟ وهل ثمة

علاقة بين الزهد والفقر؟

الإجابة عن هذه التساؤلات تمثل مدخلاً مهماً في معالجة موضوع البحث، وحلاً لإشكالية التباين في تعريفات العلماء للزهد بين كونه حالة من حالات القلب، أو سلوكاً ومنهجاً مادياً في التعامل مع مقومات الحياة، ويمكن الوقوف على المراد من خلال عرض النقاط التالية:

1. يغلب على تعريفات العلماء للزهد في المجموعة الأولى اعتباره مقاماً قلبياً، يرفض فيه صاحبه التعلق بالدنيا وزينتها، ولا يسمح للدنيا أن تنافس الآخرة على قلبه واهتماماته. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار"، (ابن القيم، 1999: 10/2). ولا شك أن هذا الفهم يتوافق مع آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي تزهّد في الدنيا وتبيّن قلتّها وخستها، وترغّب في الآخرة وتشير إلى دوامها وسعادتها، ومنها قوله تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"، (سورة الحديد:20)، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:" غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها"، (مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم:1881). وعليه فالزهد ترك ما يشغل عن الله، بسفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه من منازل الآخرة. وهذا التعريف مما أجمع عليه العارفون، وعليه صنّف المتقدمون كتب الزهد، ومنهم: عبد الله بن المبارك، والإمام أحمد، ووكيع، وهنّاد بن السري وغيرهم، (ابن القيم، 1999: 13/2). ولا يتعارض هذا المقام القلبي مع تملّك الإنسان لما يمكن تملكه من الدنيا، أو السعي في الأرض وعمارتها؛ إذ الزهد حسمٌ لعلائق القلب (البيهقي، 1996: 65/1)، لا منعٌ لتملّك الأشياء والحاجات.

2. أما تعريفات المجموعة الثانية للزهد فسلوكية عملية تطالب صاحبها بترك الدنيا قولاً وعملاً، فلا هي تسمح له بتملكها ولا تقبل منه التعلق بها، ولعل فيها انتقالاً نوعياً كبيراً عما أجمع عليه المعرفون للزهد، وما هو عليه هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومن ذلك ما نقله صاحب الإحياء عن الحارث المحاسبي قوله:" متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت محمداً والمرسلين، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم إلى الجهل؛ إذ لم يجمعوا المال كما جمعت. ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال" (الغزالي، د.ت: 265/3).

ونظرةٌ سريعةٌ في تعريفات هذه المجوعة تظهر لك الشطط عن المنهج النبوي في الزهد ـ كما سيأتي بيانه ـ ومما يمكن ملاحظته على هذه التعريفات:

أ. الدعوة إلى الفقر والكفاف، وترك التكسب والعمل، والخلط بين مفهوم القناعة والزهد، ويظهر هذا من التعريف الأول: الرضا بالقليل، وترك الفضول، وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش، والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين. وهل التفرغ إلى عمارة الوقت يتعارض مع عمارة الأرض، فلا شك أن العمل الحلال والكسب الحلال والنفقة الحلال عبادة يتقرب بها العبد إلى الله، بشرط أن تكون الدنيا في الأيدي، لا في القلوب، وإذا كانت الدنيا في يد العبد لا في قلبه، استوى في عينه إقبالها وإدبارها، فلم يفرح بإقبالها، ولم يحزن على إدبارها. ثم ألم يكن الأنبياء عليهم السلام أغنياء؟ فكيف لإبراهيم عليه السلام أن يكون مضيفاً مطعماً لقومه سخياً في عطائه إذا لم يكن يملك ما هو فاضلٌ عن حاجته، قال تعالى:" فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين"، (سورة الذاريات:26).

ب. الزهد ترك الدينار والدرهم: هذا التعريف يتعارض مع مقصد حفظ المال الذي سعت الشريعة إلى تحصيله وحمايته من جانبي الوجود والعدم، وقد أمر الله أولياء الأيتام أن يحافظوا عليه، وألا يعطوه السفهاء إذ فيه قوام حياتهم، " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً"، (سورة النساء:5). فكيف تكون الدعوة إلى تركه وفيه معاشنا وقوام حياتنا، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ولا شك أن المال أحد أكبر مصادر القوة في عالمنا اليوم. وكذا يقال في التعريف الخامس: وجود الراحة في الخروج من الملك.

ج. زهد الأغنياء في القناعة، وزهد الفقراء في أن لا يريدوا خلاف حالتهم: يلاحظ على هذا التعريف الخلط بين مفهوم القناعة الذي يهتم بالرضا عن الله في الفقر والغنى مع الأخذ بالأسباب، وبين مفهوم الزهد الذي يرفض التعلق القلبي بالدنيا حتى لو ملكت القليل منها، ثم إنّ في توصيف زهد الفقراء على أنهم لا يريدون الخروج من حالتهم، أو أنهم يحبون الفقر مخالفة واضحة لدعوة

الدين أن تكون أيادي أتباعه معطية عليا، لا آخذة دنيا، وتتعارض مع ما تعوّذ منه نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ "أعوذ بك من الكفر والفقر"، (أبو داود، سنن أبي داود، باب ما يقول إذا أصبح، رقم5090، والحديث حسن الإسناد، تحقيق: الألباني).

د. وقد بلغ ببعضهم من إنكار تملك الدنيا والاحتجاج بعمل الصحابة ما نقل عن المحاسبي أنه قال: "ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً"، مستشهداً بحديث موضوع لا تليق نسبته للصحابة، ولا يحسن بي نقله في زعم إنكار أبي ذر على ابن عوف . رضي الله عنهما . إجازة جمع المال الحلال. (الغزالي، د.ت: 266/3).

وهنا أورد ردّ ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ على الصوفية الذين لبّس عليهم إبليس في الخروج عن الأموال والتجرد عنها، قال: " فأما كسب المال، فإن من اقتصر على كسب البلغة من حلها فذلك أمر لا بد منه. وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نظرنا في مقصودة: فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود. وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات. وقد كان نيات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم لجمعه فحرصوا عليه وسألوا زيادته"، (ابن الجوزي، 1989: 252).

ترجيح مفهوم الزهد المعنوي.

وبعد هذا العرض السريع للملاحظات على تعريفات العلماء للزهد يحسن بنا أن نورد الأدلة الصريحة على كون الزهد من أعمال القلب، فالزهد في الدنيا هو ما كان عليه رسول الله وأصحابه، فهو ليس بتحريم الطيبات وتضييع الأموال، ولا بلبس المرقع من الثياب، ولا بالجلوس في البيوت وانتظار الصدقات، فليس الزهد أن ترفض المال وأن تكون فقيراً، أن تكون عالةً على الناس، أن تكون يدك هي السفلى، ولكن الزهد أن تكسب المال وأن تجعله بيديك لا بقلبك فإن المؤمن القوي خيرٌ وأحبُ إلى الله من المؤمن الضعيف، (عويضة، د.ت:121/1).فالمنهج النبوي في الزهد ينهى عن التعلق بالدنيا والاغترار بزينتها، ولكنه في المقابل يأمر بالسعي فيها والأكل من خيراتها وعمارتها، في بيان واضح أن محل الزهد هو القلب لا الجوارح، ومن الأدلة على ذلك:

أ. قال ابن القيم في وصف حقيقة الزهد: وليس المراد من الزهد في الدنيا رفضها من الملك، فقد كان سليمان وداود – عليهما السلام– من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء مالهما.

وكان نبينا من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة. وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير وعثمان – رضي الله عنهم– من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال، (ابن القيم، 1999: 11/2).

ب. ومما يؤكد على كون الزهد يتحقق بعمل القلب لا الجوارح ما روي عن أبي ذر مرفوعاً: " ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا في إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها، أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك"، (ابن ماجه، سنن ابن ماجه، باب الزهد في الدنيا، رقم 4100، والحديث ضعيف، تحقيق: الأرنؤوط).

ج. وليس أدل على هذا المعنى من آيات الحج التي تجيز التجارة في موسم فريضة تقبل القلوب فيها على علام الغيوب، فيأتي التوجيه الرباني:" لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا افضتم من عرفات..."، (سورة البقرة:198)، وأنت في فريضة الحج التي فيها القصد والتوجه إلى رضا الله والنجاة في الآخرة تُدعى إلى الاتجار والبيع والشراء وتحصيل الأرباح الدنيوية، بل مدح الله جل وعز من جمع بين خيري الدنيا والآخرة في دعائه في الحج فقال:" ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب"، (سورة البقرة:201).

د. وفي صحيح البخاري ما يروى عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: " كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فضرب بابي ضرباً شديداً، فقال: أثمَ هو؟ ففزعت فخرجت إليه، فقال: قد حدث أمرٌ عظيمٌ..."، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب التناوب في العلم، رقم 89). والحديث فيه إشارة إلى مناوبات بين عمر وشريكه الأنصاري في عمل الدنيا وسماع مجالس العلم، وهذا دليل على فهم مطالب الدين فهماً صحيحاً يجمع بين تحصيل الدنيا كوسيلة للعيش، والاهتمام بالدين كغاية ومقصد.

هـ. أخرج الحافظ أبو نعيمٍ في حلية الأولياء عن بشربن الحارث، قال: قيل لسفيان الثوري: أيكون الرجل زاهداً ويكون له المال؟

قال: نعم، إن كان إذا ابتلي صبر وإذا أعطي شكر، (أبو نعيم، 1974: 387/6).

و. "وقال ربيعة: رأس الزهادة جمع الأشياء بحقها، ووضعها في حقها.وقال سفيان الثوري: كان من دعائهم: اللهم زهدنا في الدنيا، ووسع علينا منها، ولا تزوها عنا، فترغبنا فيها".(الحنبلي، 2004: 150).

لقد حوت التوجيهات القرآنيّة والنبويّة العديد من النصوص الّتي تدعو إلى الزهد بالدنيا ومتاعها وتحذّر من الانغماس في شهواتها والاشتغال بها عن طاعة الله تعالى والقيام بالواجبات الشرعيّة. إلاّ أنّ المسلمين منذ عصر النبيّ – صلى الله عليه وسلم – فهموا هذه التوجيهات على نحو لا يتعارض مع إباحة الأخذ بمتاع الدنيا، فالزهد في الدنيا ومتاعها لا يعني إهمالها وهجرها، ولا يعني بحال من الأحوال التقشّف وقهر الجسد وشهوته. وإنّما يعني أن ينظر الإنسان إليها النظرة الّتي تستحقّها دون أن يجعلها أكبر همّه. فهي في حقيقتها، وكما يصوّرها القرآن الكريم والسنّة النبويّة، معبر الإنسان إلى آخرته، فعليه أن يتزوّد منها ما أمكنه من الأعمال الصالحة حتّى يصل إلى الحياة الحقيقيّة الخالدة، وهي الحياة الآخرة. فالقرآن الكريم حين يذكر متاع الحياة الدنيا لا يذمّه، ولا يعدّه رذيلة، ولا ينعي على الآخذين به، وإنمّا يلفت الأنظار إلى أنّه عَرَض زائل. مثل قوله تعالى:" المالُ وَالبَنُونَ زِيْنَةُ الحياةِ الدُنْيا والبَاقِياتُ الصَالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً"(سورة الكهف:46)، (أحمد القَصَص، د.ت: 254/1).

وبعد هذا الترجيح لمفهوم الزهد في الإسلام وفق الأدلة النقلية، أجدني بحاجة إلى تأخير الحديث عن أسباب التحول في مفهوم الزهد ومعناه، والعوامل التي ساعدت على ذلك، لأتناول أدلةً مقاصديةً تؤكد المعنى الحقيقي للزهد، الذي يتوافق مع أهداف الوجود الإنساني ومقاصد التشريع في حفظ الكليات التي تقوم بها حياة الناس، حيث يتأكد من خلال هذا المعنى أهمية عمارة الأرض والسعي فيها، والحرص على الشخصية المنتجة النافعة العاملة التي تضيف إلى الوجود، وتحقق معاني الاستخلاف الشرعي، وهذا ما سأفرد الحديث عنه في المبحث الثاني الذي يتناول الحديث عن علاقة الإنسان بالحياة.

المبحث الثاني: مقاصد الوجود الإنساني.

تتجسد علاقة الإنسان بالحياة من خلال ثلاثة مجالاتٍ رئيسة وهي: العبادة والعمارة للأرض والخلافة، قال تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، (سورة الذاريات:56)، وقال جل وعز:" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"، (سورة هود:61)، وقال سبحانه:" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، (سورة البقرة:30).

فعبادة الإنسان ربه، وعمارته للأرض وفق منهج الله هو طريق ترشحه للخلافة، وإقامة الحضارة وصناعة الحياة السعيدة الآمنة.

عبادة + عمارة الأرض = حضارة وخلافة

وهذه المجالات الثلاثة يكمل بعضها بعضاً، وتخلّف أيٍ منها يعنى تخلفاً عن قيادة الركب، وتراجعاً عن الحضارة، وإتاحة الفرصة للآخر ممن لا يعرف طريق العبادة ومقاصد العمارة أن يكون صانعاً للحضارة، وقائداً للبشرية، جالباً لها ألوان الدمار وصنوف الشرور التي أرهقت بني الإنسان، وألحقت الأذى بالأحياء والجمادات على السواء، ولقد أحسن الندوي حينما عنون كتابه ب: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، في إشارة إلى الدور المنوط بالمسلمين في قيادة البشرية عقيدةً وحضارةً إلى برّ الأمان، (الندوي، د.ت:1). فما خصائص هذه المقاصد؟ وما علاقتها بمقاصد الشريعة الإسلامية؟

المطلب الأول: خصائص مقاصد الوجود الإنساني.

يقول السباعي ـ رحمه الله ـ" إننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلاً على إنكار وجود الله، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات ذريعة إلى تهديد الأمم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا، ولن نتخذ من الإذاعة وسيلة للتضليل، ولا من السينما آلة للإغراء، ولا من المرأة متعة للجسم، ولا من التقدم الحضاري أداة لاستغلال الشعوب المختلفة واستثمار خيراتها وإذلال كرامتها، وهذا الذي يؤهل أمتنا أن تكون هي الأمة الوحيدة التي تستحق حمل لواء الحضارة بعد الغربيين، لإنشاء حضارة جديدة، تخفف من شقاء الإنسان، وتحقق له قسطاً أكبر من الأمن والطمأنينة والحياة الإنسانية المستقرة". وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"، (سورة آل عمران: 110"، (السباعي، 2010: 19).

الفرع الأول: التوازن والتكامل بين مقاصد الوجود الإنساني.

إن التلازم والتكامل بين العبادة وعمارة الأرض يمثل معادلة محكمة في تكوين الحضارة الإسلامية التي أضافت إلى الوجود

الإنساني معانيكبيرة وعميقة في تكريم الإنسان وحسن الاستغلال والاستثمار لخيرات الأرض بما يعود بالنفع للبشرية جمعاء.

فالحضارة الإسلامية: هي ثمرة الجهد البشري المبذول لعمارة الأرض وفق منهج الاستخلاف الرباني، لأن الله سبحانه عندما استخلف الإنسان في الأرض وكلفه بعمارتها, لم يتركه هكذا تائهاً من غير منهج، فوضع جلّ شأنه منهجاً لعمارة الأرض, وهذا ما يسمى بمنهج الاستخلاف الرباني,(الرفاعي، حامد، الأمة والإشكالية الحضارية، منتدى الفكر العربي، عمان:2003).

إن موقف المسلمين من هذين المجالين أو الهدفين من الوجود الإنساني مر بمراحل متعددة، أسهم الفهم الحقيقي للزهد في أول أمرها في رقيّها وتطورها، ولما اختل الفهم للزهد وأخذ منحى العزوف عن الدنيا وذمها تردى أمرها، ويمكن اختصار هذه المراحل في النقاط التالية:

أولها: المرحلة الإيجابية في تكامل مفهومي العبادة والعمارة والفهم الحقيقي للزهد التي لازمت بعثة النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث أرسل للناس جميعاً، وكان العرب حينها لا سهم لها في العبادة البتة، ومساهماتهم في عمارة الأرض لا تكاد تذكر، فجاءت الأوامر متلازمة متزامنة (اعبدوا الله مالكم من إله غيره)، (سورة الأعراف:59)، مع قوله تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، (سورة الملك:15)، فإذا شعلة الإيمان توقد فيهم، وفتيل الإبداع في عمارة الأرض يسطر أروع مظاهر الحضارة التي ما عرف التاريخ مثلها رقياً وتطوراً واحتراماً وتكريماً للإنسان، "لقد كانت الحضارة الإسلامية بشهادة الغرب أكثر رحمةً بالناس وسمواً في الخلق، وعدالةً في الحكم، وإشراقاً في الروح، واقتراباً من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره"، (السباعي، 2010: 19)، حتى غدت وجهة الغرب والعالم أجمع تقصد المسلمين للنهل من معين إبداعهم الحضاري ورقيهم الإنساني.

ثانيها: المرحلة السلبية في التخلي عن الدور الحضاري في قيادة الأمم، والعزوف عن عمارة الأرض بذريعة الزهد الحسي الموهوم، والاقتصار على ألوان العبادات الشعائرية، التي ما سلمت من الدَّخن والضعف والغلو والابتداع بين أتباع الإسلام، فغدا كثير منهم مسلماً بالاسم لا غير، وإذا وصم الغثائية يسري على أكثرهم، فتجرّأ أعداؤهم عليهم، وتداعت عليهم الأمم يكيلون لهم تهم الإرهاب والتخلف والرجعية وغير ذلك. (الشحود، د.ت: 6/ 252).

ثالثها: مرحلة الصحوة واستشعار الخطر، وتمثلت بوادرها بالعودة إلى الله جل في علاه، والإقبال على عبادته، ونفض غبار الذلة والمهانة، ولكن المرحلة لم تكتمل بعد باستدراك ما فات من زمام القيادة الحضارية للبشرية بالتفوق والتقدم في مجال عمارة الأرض، وتصحيح النظرة للعلاقة مع الدنيا، فلا زال المسلمون إلى يومهم هذا يتكئون في أبجديات معاشهم، ولوازم عيشهم على الدول الأوروبية التي اغتنمت الفرصة في غفلة المسلمين، وتقدمت تقنياً وعلمياً ومادياً وحققت إنجازات عظيمةً لا غنى لأمة من الأمم عنها، ومع ذلك فهذا التطور والإنجاز الحضاري الذي لم يحمَ بسياج العقيدة والمقاصد الشرعية، ترتب عليه أن تحيد هذه الأمم عن الجادة والصواب فتظلم وتقهر، وتؤذي وتدمر باسم الحضارة والتحضر، والنداء اليوم يرتفع ليصل إلى أسماع المسلمين أن يأخذوا دورهم في صبغ مهمة عمارة الأرض بصبغة الرحمة والسلام التي نادى بها الإسلام.

والإنصاف يقتضي ترك التعميم، فليس كل ما أبدعه الغرب مرفوضاً، أو متعارضاً مع قيم الإنسانية بل والحضارة الإسلامية، لكن المرحلة تستدعي أن ينير المسلمون الطريق لغيرهم بعد أن هُدوا إليه، ويتولوا مهمة النصح والنفع للبشرية بعمارة الأرض وفق منهج رباني يحقق سعادة الإنسان في رضى الرب الرحمن، قال جل وعز:" ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور"، (سورة النور:40).

الفرع الثاني: الإيجابية في النظرة إلى الحياة.

يعرف البعض الإيجابية بأنها: "اندِفاع الإنسان الذاتي الناشِئ عن استقرار الإيمان في قلبه، لتكييف الواقع الذي مِن حوله وتغييره وتبديلِه إن لَزِم الأمر؛ لكي يُطابِق الواقع الإيجابي الذي في حسِّه" الشريف، د.ت:1).

فالإيجابية تحمل معاني التجاوب، والتفاعل، والعطاء، والشخص الإيجابي: هو الفرد، الحي، المتحرك، المتفاعل مع الوسط الذي يعيش فيه. وهذه المعاني تتوافق مع الزهد القلبي الذي يطلق العنان للعقول والجوارح أن تبدع ما فيه سعادة الإنسانية، دون نسيان للسعادة المنتظرة، أو تقاعس في العمل من أجلها.

والإسلام دين رباني خالد يحمل في تعاليمه النفع والإحسان وإرادة الخير للناس أجمعين، ولا تجد ديانةً أو نظاماً يثيب أتباعه على نواياهم الحسنة وأعمالهم الصالحة في خدمة الآخرين مثل الإسلام.

قال صلى الله عليه وسلم:" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب

المظالم، باب المسلم لا يسلم أخاه، رقم 2442).

وإيجابية المسلم نحو الآخرين كما تكون في المشاعر والرغبات " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم 13)، تكون أيضاً في المواقف العملية في نصرة المظلوم والانتصار للحق، قال صلى الله عليه وسلم:" انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره"، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب، رقم 6952).

ومن أعجب صور الإيجابية في الإسلام ما جاء في الحديث الشريف:" إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل "، (أحمد، مسند الإمام احمد، مسند أنس بن مالك، رقم12981)، ولعل سائلاً يقول: لمَ يغرسها ولن ينتفع بها أحد؟ ولمَ ينشغل بها وقد آذنت الحياة بالزوال؟

يقول الغزالي رحمه الله: "وهذا الأمر بغرس الخضر الذى يخرج منه النبات، في تلك الآونة العصيبة، له دلالة حافلة... إنه أمر بمواصلة أسباب الحياة، في الوقت الذى تستحصد فيه الحياة.. وممن صدر؟ صدر من نبي يوجه البشر للآخرة، ويحث الناس على كره جحيمها وحب نعيمها... وقد يبدو هذا الأمر متناقضا في بواعثه وغاياته، وهو متناقض حقاً لو أن وظيفة الإسلام بناء الآخرة على أنقاض هذه الحياة... لكن الإسلام ليس كذلك، إنه يجعل صلاح الآخرة نتيجة حتمية لصلاح الأولى. أي يجعل الجنة لأولي الأيدي والأبصار، لا لأولي العجز والحجاب (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)، (سورة طه:124)، (الغزالي، 2001: 15).

والسعادة التي ينشدها المسلم ليست مقتصرة على العمل من أجل الآخرة، بل هي في الدنيا قبل الآخرة، فسنن الله وقوانينه في الجزاء على العمل ماضية لا تتحول ولا تتغير:" إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً"، (سورة الكهف:30). ولما كانت السعادة لا تتحقق إلا بالإيمان والعمل فقد قرن القرآن بينهما في أكثر من سبعين موضعاً مشيراً إلى ما تصلح به الدنيا والدين معاً.

والحقيقة أن سنة الله في الجزاء على العمل في الدنيا لا تفرّق بين مسلم وكافر، فلكل مجتهد نصيب، فمن عمل أُجر وتقدم، ومن قعد وتكاسل وتوهم حُرم وتأخر وندم حيث لا ينفعه الندم. قال ربنا جل وعز:" فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره".

ولقد أجاد الدكتور القرضاوي في رده على أولئك الذين يصورون المسلم شخصاً درويشاً أو راهباً متبتلاً للعبادة، ومنقطعاً عن الحياة، عالةً على المجتمع، مؤخراً لعجلة الإنتاج كما هو حال بعض أتباع الديانات السابقة، " ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم"، فيقول:

"فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحاً عاملاً مؤدياً دوره في الحياة، آخذاً منها معطياً لها، مستجيباً لما أراده الله من بني آدم حين جعلهم خلفاء الأرض: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (سورة هود: 61). وعقيدة الإسلام لا تعرف يوماً من أيام الأسبوع يخلص للعبادة، وينقطع الناس فيه عن أعمال الحياة –كما تعرف اليهودية مثلاً– ولكن الأيام جميعها في الإسلام أيام عمل، والعمل الدنيوي في الإسلام يمكن أن يكون عبادة بصدق النية. فهذا يوم الجمعة عيد الإسلام الأسبوعي، يقول الله تعالى فيه: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (سورة الجمعة: 9، 10). فهذه حياة المسلم في يوم الجمعة، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله والصلاة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله بعد انقضاء الصلاة". (القرضاوي، 2001: 303).

المطلب الثاني: مقاصد الشريعة الإسلامية تحقق مقاصد الوجود الإنساني.

من المتفق عليه أن التكاليف التي تخاطببها الشريعة أتباعها ترجع في أصلها ومجموعها إلى حفظ مقاصد الشريعة، والتي يمكن إجمالها بحفظ مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم في الدنيا والآخرة. وهذه المقاصد بدورها تحقق مقاصد الوجود الإنساني؛ لاتحاد المصدر، فربنا سبحانه وتعالى خالق الوجود ومنزل الشرائع، قال عن نفسه: " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"، (سورة الملك: 14).

والمقصد العام من التشريع "هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه". (ابن عاشور، 1998:188).

وهذا المطلب يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أهداف ومقاصد الوجود الإنساني في عمارة الأرض وفق منهج رباني لتحقيق معالم

الحضارة المنشودة، وفي ذلك يقول صاحب الموافقات:" إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً"، (الشاطبي، 1999: 5/2).

وسيجد القارئ في هذا المطلب كيف يتعارض مفهوم الزهد الحسي(السلبي) مع هذه المقاصد التي جاءت لحفظ ما تقوم به حياة الناس من ضرورات أكدت الشريعة على حفظها من جانبي الوجود والعدم كما سيظهر لاحقاً، ويتأكد معه حقيقة الزهد بمفهومه المعنوي(الإيجابي) الذي يجعل الإنسان رائداً ومهتماً بعمارة الأرض في الوقت الذي تتعلق روحه في الآخرة، وترنو إلى النعيم المقيم.

ومقاصد الشريعة الإسلامية تأتي على ثلاث مراتب، تهدف إلى حفظ مصالح الدارين، وهي:

أولاً: المصالح الضرورية، وهي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة. وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين. (الشاطبي، 1999: 7/2)

وثبت بالاستقراء أن المقاصد الضرورية، أو المصالح الضرورية، خمسة هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العقل، وهي التي جاء حفظها في كل ملة. (الريسوني، 1995: 146)

ثانياً: الحاجيات، وهي المصالح المفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب. (الشاطبي، 1999: 8/2). ومن أمثلتها الرخص والإباحة الجارية في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات، والتي بانعدامها تضيق حياة الناس ويلحق بهم الحرج.

ثالثاً: المصالح التحسينية، وهي ما لا يرجع من المصالح إلى ضروري أو حاجي، ولكنها تقع موقع التحسين والتزيين والتيسير والمزائد (الزوائد)، ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات، (الغزالي، 1993: 418/1)، وتجتمع التحسينيات في محاسن العادات ومكارم الأخلاق والآداب.

وحفظ هذه المصالح يكون بأمرين: الأول: مراعاتها من جانب الوجود، بإقامة أصلها، وحفظ أركانها وتثبيت قواعدها، والثاني: حفظها ومراعاتها من جانب العدم، وذلك بإبعاد ما يؤدي إلى إزالتها، أو إفسادها، أو تعطيلها، سواء أكان واقعاً او متوقعاً. (الريسوني، 1995: 146).

ومن خلال ما سبق ذكره عن الزهد وأهمية تحقيق معناه الإيجابي ومحاربة الفهم السلبي له، سأعرض لواحدة من الضرورات التي لا تستقيم مصالح الدنيا إلا بها، وتمثل عصب الحياة وقوامها، قال تعالى: " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً"، (سورة النساء:5)، فمقصد حفظ المال من الضرورات الخمس التي تسهم في تحقيق مقاصد الوجود الإنساني في عمارة الأرض؛ إذ هو أساس التعمير ووسيلته.

حيث يمثل المال على اختلاف صوره أحد الضرورات الخمس التي لا غنى للأفراد والمجتمعات عنها، فالإنسان يحتاج إلى المال لتحقيق مصالحه الدينية والدنيوية، والحفاظ على حياته بتوفير الطعام والشراب واللباس وغيره، ونظرة سريعة في جيوب الفقر والجهل في أي من بقاع الأرض تؤكد الحاجة إلى المال لسدّ الخلة، وكفاية المحتاج، ولا ريب أن القول بترك تملك الدنيا يزيد هذه المشكلة تفاقماً وتعقيداً باسم الفهم الخاطئ عن الدين ولا يعالجها.

ولا شك أن احتياج الدولة ـ التي يقع على كاهلها مهمة تأمين حاجات الافراد وتسيير شؤون الدولة والدفاع عنها ـللمال أكبر وأعظم، والدولة الفقيرة مالياً ضعيفةٌ اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، بل هي في زماننا لقمة سهلة لأعدائها، فلا غرابة أن يكون للدولة موارد مالية متنوعة تكفي من خلالها حاجاتها، وتقوي بنيانها، ولا أدَّل على ذلك من قيام بناء الإسلام العظيم في أحد أركانه على ركن الزكاة المالي، بالإضافة إلى الغنائم والعشور والصدقات والوقف والخراج وغيرها مما يكفل قوة الدولة ومنعتها.

وحفظ المال كضرورة معناه: إنماؤه وإثراؤه وصيانته من التلف والضياع والنقصان. (الخادمي، 2001:1/84)، **فحفظ المال من جانب الوجود** يكون بتنميته من خلال الحث على الكسب والإنتاج وزيادته بالإتجار والعمل، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ"، (سورة الملك:15)، وقال تعالى: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ"، (سورة الجمعة:10)، وقال صلى الله عليه وسلم:"ما أكل أحد طعاما قط خيرا من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم 2172).

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إلي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: " خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني " فأتيته وهو يتوضأ، فصعد فيّ النظر ثم طأطأه، فقال: " إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة". قال: فقلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: " يا عمرو، نعمّا بالمال الصالح للرجل الصالح"، (المسند، مسند الإمام أحمد، مسند عمرو بن العاص، رقم

17763، وإسناده صحيح على شرط مسلم).

ولا يقتصر الهدف من وراء الحث على الكسب تحقيق مصالح العباد الدنيوية بتوفير العيش الكريم، وسدّ الحاجة بعيداً عن مهانة الفقر والمسكنة، والتي أشار إليها صلى الله عليه وسلم بقوله: " الذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله أعطاه أو منعه"، (البخاري، صحيح البخاري، باب الاستعفاف في المسألة، رقم 1470). بل يتعداه إلى مصالح الآخرة من خلال ما يجلبه المال من منافع دينية أخروية لصاحبه، متمثلة بالأجور الكبيرة المحصلة من إنفاق المال في وجوه الخير، قال صلى الله عليه وسلم: " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته بالحق(أنفقه في وجوه البر)..."، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم1409).

وقال صلى الله عليه وسلم:" ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة"، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم 2320).

وأورد البغوي في شرح السنة آثاراً عن الصحابة والتابعين في بيان أهمية الحصول على المال وكسبه وتنميته، ومنها: قول حذيفة رضي الله عنه: ليس خياركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا، ولكن خياركم من أخذ من كل.

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يجمع المال فيكف به وجهه، ويؤدي به أمانته، ويصل به رحمه، وحكي أنه لما مات ترك دنانير، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أتركها، إلا لأصون بها ديني وحسبي.

قال سفيان الثوري: كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم، فهو ترس المؤمن، وقال: لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك، (اتخذوهم أدوات لتبرير ظلمهم، كما تتخذ المناديل لمسح الأوساخ)، (البغوي، 291/1983:14).

وأما **حفظ المال من جانب العدم** فيكون بدرء الفساد الواقع أو المتوقع عليه وذلك بعدة أمور منها تحريم الاعتداء عليه كما قال ربنا جل جلاله:" وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، (سورة البقرة:188)، وكذا النهي عن إضاعة المال وتبذيره حيث أرشد جل وعز بقوله: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا"، (سورة الأعراف:31)، ومنها أيضا معاقبة السارق بالحد، والقضاء بضمان المتلفات، والحث على توثيق الديون والإشهاد عليها، وحفظ اللقطة وغيرها من تشريعات وإرشادات كفلت حماية المال من الأخطار. (اليوبي، 1998: 294).

وفي تأكيد أهمية المال وكسبه وأنه لا يتعارض مع الدين عموماً قال صاحب الآداب الشرعية:" يسن التكسب ومعرفة أحكامه حتى مع الكفاية نص عليه قاله في الرعاية وقال أيضا فيها يباح كسب الحلال لزيادة المال والجاه والترفه والتنعم والتوسعة على العيال مع سلامة الدين والعرض والمروءة وبراءة الذمة". (ابن مفلح، د.ت: 256/3)، فكيف إذا كان هذا المال هو عصب الحياة وعماد إقامة الدين وتمكين الدعاة وتحصين بلاد المسلمين، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن القواعد الأصولية المستقرة أن الوسائل لها حكم المقاصد، (ابن عثيمين، د.ت: 27/1)، وعليه فوسائل المأمورات مأمورٌ بها، والأمر الرباني بالاستخلاف وعمارة الأرض منسحب على وسائل تحقيقه من السعي والكسب والعمل والاجتهاد.

وأبعد من ذلك يمكن القول بأن المال هو آلة الاختبار الحقيقة للزهد، إذ لا يتصور الزهد من فقير، فالزاهد الحقيقي من تعرض لامتحان المال، وأتته الدنيا فلم تشغله عن ربه بل استصغرها في عينيه، وجعلها في يده يكد ويكسب، وقلبه يخفق نحو موعود الله الأزلي، روي أنه قيل لابن المبارك: يا زاهد. قال: الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيمَ زهدت؟(ابن القيم، 1999: 12/2).

المبحث الثالث: التحوّل في مفهوم الزهد، الأسباب والنتائج.

لا شك أن دعوى تحقيق الزهد بالعزوف عن الدنيا وترك العمل، لا تستند إلى دليل نقلي أو عقلي، بل هي خادمة لأعداء الإسلام الذين يفرحون بتخلف المسلمين وتأخرهم عن مواكبة الحياة، فماالأسباب الكامنة وراء عجز المسلمين عن استخراج كنوز الأرض وخيراتها؟ وما العوامل التي تحول بين المسلمين وبين الأخذ بزمام القيادة والحضارة؟ وإلى متى ستبقى الأمة التي أخرجت للناس حبيسة الأنفاس مستهلكة انتاج غيرها، متغنيةً بأمجاد السابقين الذين ما راعت العهد بينها وبينهم؟ وما آثار ونتائج هذا التحول في فهم الزهد وصرفه عن حقيقته؟

المطلب الأول: أسباب التحوّل في مفهوم الزهد.

استطاع الغيارى من هذه الأمة إحصاء جملة من الأسباب المادية والمعنوية التي تكونت على مرّ القرون، وتولّد عنها هذا الإدبار

المزري عن الدنيا، ولعلّي أذكر بعضاً من هذه الأسباب كعناوين رئيسة، مكتفياً بالتعليق، ومحيلاً القارئ إلى صرخة الغزالي الغيور على دينه في كتابه القيم: الإسلام والطاقات المعطلة للوقوف على التفاصيل والكشف عن سرّ التخلف والتأخر لأمة مستخلفة في الأرض بعثت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أولاً: فساد عاطفة التدين

وهذا الفساد كما يرى الغزالي له أسبابه، والتي من أهمها انتشار تعاليم الصوفية المغالية (دون تعميم)، وشيوع أفكارهم القاتمة عن الحياة. فالمتصوفة نهوا الناس عن حب الدنيا والفتنة بها، وما زالوا يحصون مثالبها ويقبحون الاتجاه إليها، حتى أصبحت أيدى الناس صفراً منها، فعانوا آلام الجوع بعد ما كانوا يعانون متاعب البطنة... وتراث الصوفية حافل بهذا الغذاء المسموم. لا يصح الإيمان إلا بنبذ الحياة، ولا تخلص الآخرة إلا بهجر الدنيا.(الغزالي، 2001: 24).

وبالمحصلة فإن الذين يسيئون فهم الدين أشد خطرا على الإسلام (بل والحياة) من الذين لا يدينون به، فغير المتدين(الملحد) تحمله حاجاته الشخصية وأصل الفطرة على العناية بالدنيا والاهتمام بتحصيلها، صحيح أنه قد يسلك طرقا ممنوعة في بعض الأحيان فيؤذي ويسيء، غير أنه أنفع للبشرية في أحيان أخرى من متقاعس بطّال يتعلل بالتدين الموهوم والإيمانيات المصطنعة لبقائه عالة على الآخرين في طعامه وشرابه حتى لو كانوا أعداء دينه.

ثانياً: الاستبداد والظلم للشعوب.

لا شك أن الدول المتحضرة التي تثق بشعوبها، وتوظف نفسها خادمة لها، تنصف المظلوم وتعدل بين الأقران، وتمد يد العون للمحتاج هي ذاتها الدول التي تجني الثمار والنتائج الحضارية في تحقيق الانتماء لأوطانها، وفي الكشف عن مواهب أبنائها، وتوظيف طاقاتهم في خدمة البلاد والعباد، قال صلى الله عليه وسلم: " من أحيا أرضاً ميتة فهي له"، (أبو داود، سنن أبي داود، باب من أحيا أرضا، رقم 3073، والحديث صحيح).

وفي المقابل فإن العقلية الدكتاتورية، والسياسات المستبدة تحطم أحلام الشباب، وتقهر الشعوب، وتدفعهم دفعاً إلى الإحباط واليأس، وتسلط الأوهام في عقولهم، فإذا شعلة الهمة قد انطفأت، وإذا الطاقات والكفاءات قد هُجّرت أو عُطّلت، وإذا الفساد قد تأسس وتنظم، والظلم في كافة صوره ومجالاته في التعليم والصحة والوظائف والحقوق قد استشرى وتجذر، وهذا وحده كفيل بتعطيل الحياة وتخلف من هم عليها وتراجعهم حتى عن صفة البشرية.

ثالثاً: تسلط الأوهام والخرافات على الحياة العامة.

النتيجة الطبيعية لتهميش العقول عن التفكير والإبداع والعمل، هو تسلط الخرافات والأوهام والبدع على تلك الأجسام الخاوية، ولعل الأمر لم يعد مجرد خزعبلات وخرافات متوارثة أو منقولة من كتب الأساطير الغربية، بل في كثير من الأحيان منسوبة للدين، وآخذة من لبوسه وعناوينه. ولعل تصفحاً سريعا لبعض وسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة تضعك في صورة هذا الخطر الكبير، وأنت تلحظ آلاف المشاركات لصورة بقرة أو شاة عليها لفظ الجلالة تنال إعجاب الملايين، ويشعر الناقل لها بنشوة انتصار هذا الدين وصحة رسالته من خلال صورة هذه المعجزة المصنعة بفنون الفوتوشوب الحديثة، في الوقت الذي يعمي فيه الكثير أبصارهم عن آيات الله الكونية والمتلوة التي تحيي في العالم إنسانية الإنسان، والله المستعان.

رابعاً: السطحية في التعامل مع النصوص، بل واجتزاؤها في بعض الأحيان.

فهم النصوص الشرعية وفق مراد الله مقدم في الدين على حفظ هذه النصوص أو العمل بها، ذلك بأن الله تعالى قد خاطب العقول بأوامره، وجعل الأحكام والتشريعات ماضية وفق سنن كونية لا تتغير ولا تتبدل، وأناط الأحكام بعللها وسيّجها بالحِكم التي لا تفك عنها.

فأي جريمة تلك التي يرتكبها البعض وهم يحملون نصوص الدين بما لا تحتمل، ولا تتوافق مع مقاصد الشرع وأهدافه. ولئن أساء أولئك النفر الذين أفتوا صاحبهم عن جهل بوجوب غسل رأسه النازف بعدما أصابته الجنابة، فمات من ساعته، فغضب . صلى الله عليه وسلم . لما سمع بخبره، وقال منكرا عليهم:" قتلوه قتلهم الله"، فكم من نفس قتلتها فتاوى أولئك الداعين للفقر، أو قناعات المعطلين للهمم، أو أفكار التاركين الميدان للأعداء يطورون أسلحة الإبادة والقضاء على الإسلام والمسلمين، وهم يخدعون أتباعهم بالزهد الكاذب، أو تزكية النفس الموهومة، أو الخلافات التي تتناقلها الأجيال بالوراثة دون أن يكون لها أثر عملي في تطوير حياتهم وإسعاد أنفسهم.

المطلب الثاني: الآثار والنتائج المترتبة عن هذا التحول.

يمكن توصيف الآثار المترتبة على الأفراد المجتمعات على حد سواء نتيجة التحوّل في مفهوم الزهد في عدة نقاط أهمها:

1. التأخر عن الأمم، والفشل الحضاري والتبعية للآخر.

يقول الغزالي رحمه الله: "من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا عجزةً عن الحياة، وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلماتٍ تقال، ومظاهر تقام. إن الله لا يقبل تديناً يشينه هذا الشلل المستغرب، ولا أدري كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعاني من هذه الطفولة التي تجعل غيرنا يداوينا، ويمدنا بالسلاح إذا شاء" (الغزالي، 2001: 36).

2. استنزاف الجهود والطاقات، وتضييع الأوقات.

فتكبيل الطاقات باسم الدين، والتعبد بالكسل بسوء الفهم للنصوص، والاقتصار في مفهوم العبودية على الشعائر التعبدية دون الشعائر التعاملية والإيجابية في نفع البشرية ينذر بنتائج وخيمة ومخاطر جسيمة على هذه الأمة، الواقع يظهر معاناتها ويصور مدى ترديها في سلم الأمم، ويجسد التراجع والتخاذل التي وصلت إليه الأمة في الاتكال على الآخر.

وليت التذرع بمبدأ (الحكمة ضالة المؤمن) يكون رائدها في ذلك، بل للأسف التظاهر بالزهد في الدنيا، والادعاء بأنّا طلاب الآخرة الراغبون بما عند الله في الجنة، وكأن الدنيا لم يخاطب الله بها عباده لما قال: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"، (سورة النحل: 97)، وكأن جنة الدنيا ليست للمؤمنين، وكأن العنصر المكرم على الخلق أجمعين لم يعرف دوره بعد أنه خليفة الله في الأرض، وأن الرسالة الإلهية الخاتمة جاءت لإسعاد البشرية كل البشرية، وأن عمله وانتاجه في الدنيا المقرون بالإيمان هو طريق جنة الخلود.

3. استباحة الميادين الإسلامية أمام امتداد العولمة الجارف.

من يفهم الزهد بأنه ترك الدنيا والافتقار إلى الله والرضا بعيش الخنوع والتبعية واستباحة العولمة له، كيف له أن يدّعي اقتداءه بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكيف حاله وهو يسمع المهاجر التارك لكل ما ملك من الدنيا من أجل دين الله كيف تدفعه همته وحسن فهمه لدينه، وعزة إسلامه لأن يقول لمن جاءه يعرض عليه نصف ثروته بالمجان: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلني على السوق، (البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب، رقم 3937) يريد . رضي الله عنه . إعادة بنائه المالي من جديد، ويحرص على أن يضع له قدما في اقتصاد ونهضة دولة فتية.

لا يقبل لنفسه الصدقة ولا أن يكون عالّة، لا ينكر ذاته وقدراته، لا يستحيي من طلبه العمل والثروة، بل وأكثر من ذلك يسعى لتحرير دويلة ناشئة من تسلط اقتصاد يهودي يسيطر على سوق المدينة، فهمٌ وأي فهم، رضي الله عنهم أجمعين.

4. الإساءة للدين، والصد عن سبيل الله عملياً.

فما نظرة العالم الغربي عنا نحن المسلمون، وهو ينتج لنا طعامنا ودواءنا وحاجاتنا، وأي انطباع يأخذه عن الإسلام وهو يرى أتباعه لا يستطيعون سدّ خلتهم بأنفسهم أو توفير طعامهم وضرورات معاشهم أو ترفيّات حياتهم، أتراه يَقنَع بأن الدين يأمرنا بالعمل ويأجرنا عليه؟ أتراه يصدق بأن هؤلاء الكسالى يحملون مفتاح سعادة البشرية جمعاء؟ أي صدّ عن سبيل الله هذا ونحن ندري أو لا ندري؟!

لعل العامِل الغربي(غير المسلم) يرى نفسه متفضلاً علينا وهو يقدم لنا إنتاجه من سبحةٍ وغطرةٍ وسواك وسجادة صلاة لنتقرب فيها لخالقنا، لعله أقرب إلى أوامر الله وإلى الفطرة . لو صح توجهه . من كثير من أبناء أمتنا الذين يتظاهرون بالزهد الخادع والقرب الواهم.

5. الغزو الفكري وضياع الهوية.

لئن كانت التبعية للمستعمر والوقوع في شرك العولمة والتراجع عن مواكبة الحضارة المادية بعض آثار الفهم المغلوط للزهد، فإن خطراً أعظم من ذلك يتهدد الأمة من وراء هذا الانحراف الفكري والسلوكي يتمثل في إخلاء الميدان وتفريغ الساحات من الخطاب الإسلامي العملي الصحيح، وانفراد الغربي بالتأثير عملاً لا قولا، كيف لا والغرب اليوم يُصدّر ثقافته وعاداته بل وأفكاره وضلالاته من خلال السلع والمنتجات التي تغزو بلاد العرب والمسلمين، إذ لم يعد يخفى على أي مراقب كيف يروج الغرب أفكاره ويؤثر في الأجيال.

تصور أن الصناعة الإسلامية اليوم تنال ثقة المستهلك، وتتربع على أولويات اختياراته في السوق، كما هي الصناعات الألمانية في المركبات، أو اليابانية في الأجهزة مثلاً، نعم ليدخلن الإسلام كل بيت وليستحوذن على اهتمام عقول البشر لا بالقول، بل بالإنتاج

والعمل الذي يتحدث عن أصحابه في إتقان عملهم وصدق بيعهم ودقة مواعيدهم وغير ذلك.

لا بد أن نعي تماماً أن العمل وريادة هذه الأمة للحضارة وسيلة من وسائل الدعوة أيما وسيلة، فهل يقلّد العالم إلا المبدع، وهل يفخرون إلا بالانتساب للقوي، وعليه فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

المطلب الثالث: اجهدْ لتزهدْ، وتملكْ ولا تتعلقْ.

ما زلت أرى في آيات الإنفاق المبثوثة في ثنايا كتاب ربنا العظيم بما يربو على عشرات الآيات، ومثلها وأكثر في أحاديث نبينا الكريم . صلى الله عليه وسلم . المرغّبة في الصدقة والإنفاق، والمؤكدة على ما لصاحبهما من أجر وثواب في الدنيا والآخرة، أكبر محفّز ودافع للعمل في الدنيا تحصيلاً لخيراتها ونعمها، وتنمية لثرواتها، وتوظيفها لكل ما فيها من أجل إسعاد البشرية في الدنيا قبل الآخرة.

ولئن استدل أهل الأصول بدلالة الإشارة من قوله تعالى:" فاسألوا أهل الذكر"، (سورة النحل:43) على وجوب تهيئة العلماء وتنشئتهم وإعدادهم حتى يتحقق مضمون الآية في الرجوع إليهم عند السؤال، فإني بذات الدلالة أفهم قوله تعالى: " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، (سورة البقرة:274) على تحصيل المال والنعم لتمكننا من أن نكون ممن عنتهم الآية وأثنت عليهم.

إذاً اجهد وجدّ وأقبل واجتهد لعمارة الأرض والانتفاع من خيراتها لتحصيل الزهد الحقيقي يوم أن تكون الدنيا التي حصلتها وجعلتها في خدمة الدين سببا لفوزك بالنعيم المقيم والسعادة الأبدية في الآخرة.

لم يكن المال يوماً حاجزا بين الرجل وبين الخاتمة الحسنة والمردّ السعيد في الآخرة، ولم تكن الأموال التي تملكها الصحابة كأبي بكر وابن عوف وابن عفان حاجزا دون تفوقهم الديني، والتزامهم بالأوامر بل وتقدمهم على غيرهم ممن لم يملك ما ملكوا، فما تخلفوا عن غزوة قط انشغالاً بالمال بل جهزوا الغزوات ومولوها بأموالهم، وما قلت درجة إيمانهم ولا قست قلوبهم بالمال بل رقّت وهُديت إلى الحق لما علموا أن المال لله في أيديهم يضاعفه لهم في الدنيا، ويريهم ثمراته في حياتهم قبل مماتهم رضي الله عنهم ثم يعدهم فيقول:" ولسوف يرضى"، (سورة الليل: 21).

وباختصار تملك من الدنيا ما شئت بما شرع ربنا وأباح، وإياك أن يتعلق قلبك به فتقدمه على آخرتك، أو تبخل به عن دينك، أو ترضى به عن ما هو خير وأبقى عند الله في الآخرة، تملك ولا تتعلق.

ولك أن تقف مع هذه **التطبيقات العملية للزهد الحقيقي** الذي فهمه الصالحون:

1. تركت لهم الله ورسوله: قالها أبو بكر وهو قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بكل ماله النقدي، ويجيب عن سؤال نبيه:" ما تركت لأهلك؟"، (ابن كثير، 1991: 571/2)، أرأيت أعظم من هذا الزهد، الدنيا في يده يملكها ليعتق، ليرفع مظلمة، لينصر دينا، ليفك أسيرا....

2. ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم: وسام تقلده ذو النورين وهو يتولى مهمة تجهيز جيش العسرة بماله، ويجود به على الدين، وقد سبق أن جرب معنى العطاء فاشترى بئر رومية وأوقفه على المسلمين حتى لا يبقوا تحت رحمة اليهود، (البوطي، 1995: 1، 396).

3. وما شأني أن كنت أنفق درهما في الصباح فيخلفني الله عنه عشرة في المساء: عبارة برّر فيها عبد الرحمن بن عوف سعة ماله وملكه لما سأله أصحابه عنه، وقيل كان لا يعرف من بين عبيده، (الذهبي، 2006: 64/3).

وقد عرضت وسائل التواصل الحديثة ومواقع البحث الالكترونية أمثلة معاصرة للزهاد، منهم كما تجده على شبكة الانترنت:

4. عبد الرحمن السميط: مثال وقامة كبيرة لمن ملك المال ووظفه في خدمة الدين والدعوة إلى الله، حتى دخل الإسلام بسب جهده الدعوي في افريقيا وحدها عشرات الآلاف من البشر، سخر ماله لهذا الهدف، ولم تشغله الدنيا عن تحقيقه، بل جعلها وسيلة لذلك.

5. الملياردير السعودي سليمان الراجحي الذي تناقلت وسائل الإعلام خبره حينما أوقف نصف ممتلكاته على الجهات الخيرية، وأنتهى من توزيع تركته في حياته على الورثة، وحقق معاني الزهد في الدنيا بعد ما حصل منها على ما جعله يصنف من أوائل أثرياء العالم، غير أنه لايتعلق منها بشيء، ويصف نفسه بأنه فقير إلى الله...

الخاتمة وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

أولاً نتائج البحث.

1. تدور معاني الزهد في اللغة حول: التقلل من الشيء والإعراض عنه، وترك الميل إليه مع احتقاره واستصغاره.
2. الزهد في الاصطلاح يحمل معنيين: الأول إيجابي يتعلق بأعمال القلب وترك التعلق بالدنيا، دون أن يتعارض ذلك من عمارتها وتملكها بما يحقق مصالح الدارين، والثاني سلبي يدعو إلى محاربة الدنيا ونبذها والتقلل منها، والرضى أو الطمع بالفقر فيها.
3. والراجح أن الزهد في الدنيا ليس بتحريم الحلال، ولا في إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها، أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك.
4. تتحدد علاقة الإنسان بالحياة بثلاثة مجالات رئيسة هي العبادة والعمارة والاستخلاف، وتشكل بمجموعها الحضارة الإسلامية التي تحمل معها منهج الحياة السعيدة للبشرية أجمعين.
5. وجود المسلم في هذه الحياة إيجابي، يضيف إليها، ولا يتكل فيها على غيره، لأنه يعلم أن السعادة في الآخرة تكون لأولي الأيدي والأبصار، الذين يقدمون لدينهم ومجتمعاتهم انتاجاً وتطوراً وحضارةً، لا للعجزة وأصحاب العمى الذين هم عالّة على مجتمعاتهم.
6. المقصد العام من التشريع هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان. وذلك بجلب المصالح ودرء المفاسد التي تدور حول ضرورات خمس عليها مدار صلاح حياة المرء.
7. وحفظ المال كضرورة من ضرورات الحياة يكون بإنمائه وإثرائه، وهو ما يعرف بجانب الوجود، وصيانته من التلف والضياع والنقصان، أي من جانب العدم.
8. فساد عاطفة التدين، والاستبداد، والخرافات والأوهام مع السطحية في التعامل مع النصوص الشرعية أهم أسباب التحول في مفهوم الزهد من اللون المعنوي الإيماني إلى المعنى المادي الحسي الذي يتناقض والفطرة السليمة وكذا تعاليم الشرع القويمة.
9. التبعية للمستعمر والوقوع في شرك العولمة والتراجع عن مواكبة الحضارة المادية، وتفريغ الميدان من الدعوات الإسلامية العملية بعض آثار الفهم المغلوط للزهد.

ثانياً: التوصيات:

1. إيلاء الفهم الحقيقي لمقام الزهد ضمن مسار مقاصد الوجود الإنساني أهمية كبيرة بما يضمن التوافق مع نصوص الشرع وعدم التناقض، وهذا بدوره يمنع الانحرافات الفكرية في مكونات الحياة (العقل والجسد والروح) فلا يطغى جانب على آخر، ولا يلغى جانب لتحقيق غيره.
2. ضرورة تحمل الدولة مسؤوليتها في تشجيع الإنتاج والعمل وعمارة الأرض وفق منهج الله تعالى بما يكفل قيادة الأمة لركب الحضارة، والدعوة إلى الله من خلال العمل لا القول، ومن طريق الإيجابية والنفع للآخرين، لا التكاسل والاتكاء على الآخر.
3. استخدام المقاصد الشرعية أداة لقياس مدى صحة الاجتهادات المعاصرة، مع ضرورة الأخذ بالضوابط الشرعية، وتجنب الهوى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله(ت 430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط 1974م، دار الفكر، بيروت.

ابن الجوزي، أبي الفرج (ت597هـ)، تلبيس إبليس، ط1: 1989م، دار مكتبة الحياة، بيروت.

ابن حنبل، أحمد(ت 241هـ)، المسند، ط2001م، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط 1998م، دار البصائر.

ابن عثيمين، محمد صالح، الأصول من علم الأصول، د.ت.

ابن فارس، أحمد (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط1994م، دار الفكر، بيروت.
ابن القيم، محمد بن أبي بكر(ت751هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط1996م، دار الكتاب العربي، بيروت.
ابن كثير، اسماعيل بن محمد، مسند الفاروق، ط1991م، دار الوفاء، القاهرة.
ابن ماجه، محمد بن يزيد (273هـ)، سنن ابن ماجه، ط2009م، تحقيق الأرنؤوط، دار الرسالة العلمية، بيروت.
ابن مفلح، محمد بن محمد(ت763هـ)، الآداب الشرعية والمنح المرعية، د.ت.
ابن منظور، محمد بن مكرم(711هـ)، لسان العرب، ط1985م، دار صادر، بيروت.
البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ط1422هـ.
البغوي، الحسن بن مسعود(ت651هـ)، شرح السنة، ط1983م، المكتب الإسلامي، دمشق.
البوطي، محمد سعيد، فقه السيرة النبوية، ط1996م، دار المعرفة، بيروت.
البيهقي، أحمد بن الحسين(ت458هـ)، الزهد الكبير، ط1996م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
الجرجاني، علي بن محمد(ت816هـ)، التعريفات، ط1983م، دار الكتب العلمية، بيروت.
الحنبلي، ابن رجب (ت795هـ)، جامع العلوم والحكم، ط2004:1م، دار الإسراء، عمان.
الخادمي، نور الدين بن مختار، علم مقاصد الشريعة، ط2001م، مكتبة العبيكان، الرياض.
الذهبي، محمد بن أحمد(ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، ط2006م.
الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ط2003م، دار الحديث، القاهرة.
الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط1995م.
الزمخشري، محمود بن عمرو(ت538هـ)، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت.
السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا ط 2010م، دار ابن حزم، بيروت.
الشاطبي، ابراهيم بن موسى، (ت790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، ط1999م، مؤسسة الرسالة.
الشحود، علي بن نايف، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، د.ت.
الشريف، عبد الخالق، الشباب في مرآة الإسلام، د. ت.
عويضة، محمد نصر الدين، فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، د. ت.
الغزالي، أبو حامد(ت505هـ)، إحياء علوم الدين، د.ت، دار المعرفة، بيروت.
الغزالي، أبو حامد(ت505هـ)، المستصفى، ط1993م.
الغزالي، محمد، الإسلام والطاقات المعاصرة، ط2001م، دار القلم، بيروت.
الغزالي، محمد، مشكلات في طريق الحياة المعاصرة، ط2001م.
الفيومي، أحمد بن محمد(ت770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ط د.ت.
القرضاوي، يوسف، الإيمان والحياة، ط2001م، مكتبة وهبة، القاهرة.
القشيري، عبد الكريم (ت465هـ)، الرسالة القشيرية، ط د.ت، دار المعرفة، بيروت.
القصص، أحمد، نشوء الحضارة الإسلامية، د.ت.
قطب، سيد، معالم في الطريق، د.ت.
مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، د.ت.
المحاسبي، الحارث(ت243هـ)، رسالة المسترشدين، ط5: 1988م، دار السلام، بيروت.
مسلم، بن الحجاج(ت261هـ)، صحيح مسلم، د.ت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، د.ت، دار الإيمان.
وكيع، أبو سفيان بن الجراح(ت197هـ)، الزهد، ط1984م، مكتبة الدار، المدينة.
اليوبي، محمد سعد بن أحمد، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط1998م، دار الهجرة، الرياض.

Attaining the Concept of “Asceticism “Azzuhd” in Life” in Light of Understanding the Purposes of Human Existence (A Referential and Critical Study)

*Iyad Nemer **

ABSTRACT

This research dealt with the issue of referencing which is related to the purposes of human existence as a tool to attain the concept of “Asceticism in life”. The study presented the relationship between man and life and his positive role in this existence in order to avoid the incorrect or extreme understanding of asceticism, which views it through renouncing life, abandoning life to win the afterlife, is unrelated to the truth of faith. The research displayed the causes of the serious shift in the concept of “Asceticism in life”, the factors of deviation from the approach of the Prophet and warns of the threats of this shift to the individual and society. In addition, it stressed denying the conflict between asceticism as the standard of Self-Purification “Tazkya” and assigning man with Populating Earth “Ie’maar Alardd” and being its successor “Khaleefah” as one of the purposes of existence.

Keywords: Asceticism, Purposes of Human Existence.

* Department of Sharia and Islamic Studies, Faculty of Arts, University of Applied Sciences, Jordan. Received on 3/4/2017 and Accepted for Publication on 20/4/2017.